المحاضرة التاسعة

الأهداف :

استكمال معرفة الدويلات المستقلة ببلاد المغرب في عهدها الأول (الأدارسة والاغالبة) ومعرفة حكامهم وأشهر أعمالهم إلى غاية أفول نجمهم .

ثالثا : دولة الأدارسة :

في سنة 145 هـ خرج محمد بن عبد الله بن الحسين (النفس الزكية) على أبي جعفر المنصور واجتمع عليه أهل الحجاز واستولى على المدينة ثم مكة ووصل الخلاف إلى الاقتتال فوقعت معركة فخ سنة 169 هـ ونكّل العباسيون بالعلويين ففرّ عمه إدريس بن عبد الله بن الحسن وتنكّر حتى وصل إلى المغرب ، ونزل بمدينة وليلي سنة 172 هـ عند إسحاق بن عبد الله الأوربي فأجاره وأكرمه ، وتمكن إدريس من نشر دعوته بين البربر لفصاحته وعلمه فالتفت حوله أمم من البربر ، من قبائل أوربة ومغيلة وزناتة ولواتة ومكناسة وغمارة وغيرها وبايعوه بالإمامة.

وفي هذا الصدد يورد السلاوي صاحب الاستقصا متونا نصية عن ذلك بقوله : << لما استقر إدريس بن عبد الله بمدينة وليلي عند كبيرها إسحاق بن محمد بن عبد الحميد الأوربي أقام عنده ستة أشهر فلما دخل شهر رمضان من السنة ، جمع ابن عبد الحميد عشيرته من أوربة وعرفهم بنسب إدريس وقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرر لهم فضله ودينه وعلمه واجتماع خصال الخير فيه ، فقالوا : الحمد لله الذي أكرمنا به وشرفنا بجواره وهو سيدنا ونحن العبيد ، فما تريد منا ؟ قال : تبايعونه ، قالوا : ما منا من يتوقف عن بيعته ، فبايعوه بمدينة وليلي يوم الجمعة رابع رمضان المعظم سنة اثنتين وسبعين ومائة ، وكان أول من بايعه قبيلة أوربة على السمع والطاعة والقيام بأمره والاقتداء به في صلواتهم وغزواتهم وسائر أحكامهم ... ثم بعد ذلك وفدت عليه قبائل زناتة والبربر مثل زواغة

وزواوة وسدراتة وغياثة ومكناسة وغمارة وكافة البربر بالمغرب الأقصى فبايعوه أيضا ودخلوا في طاعته ، فاستتب أمره وتمكن سلطانه وقويت شوكته >> .

وقد تمكن إدريس من تشكيل جيش افتتح به حصون تامسنا وتادلا وماسة التي كانت حادت عن تعاليم الإسلام وفيها من مازال على ملة اليهودية والنصرانية ، كما تمكن من إخضاع قبائل مغراوة وبني يفرن واخضع تلمسان وبنى بها جامعا بعدما خرج إليه صاحبها محمد بن خزر الزناتي وبايعه وبذلك اتسعت دولته وكانت العاصمة الأولى هي مدينة وليلي .

في سنة 175 للهجرة (رواية ابن عذاري) وقيل 177 للهجرة (رواية ابن أبي زرع الفاسي) توفي إدريس بن عبد الله (إدريس الأول) وترك جاريته كنزة حاملا فوضعت سنة 177 هـ غلاما اسمه إدريس على اسم أبيه فتكفل به راشد وعلمه القران والفقه . وعن سيرة إدريس الثاني يقول ابن أبي زرع الفاسي صاحب روض القرطاس : << هو الإمام إدريس بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ، أمه ... كنزة مولده يوم الاثنين الثالث من شهر رجب الفرد عام سبعة وسبعين ومائة ، كنيته أبو القاسم ، صفته صفة أبيه ، كان ابيض اللون مشوبا بحمرة أكحل أجعد ، تام القد جميل الوجه أقنا الأنف[1] مليح العينين واسع المنكبين شتن [2] الكتفين والقدمين ، أبلج [3] أفلج أدعج [4]، فصيحا بليغا أديبا عاملا بكتاب الله تعالى قائما بحدوده ، راويا لحديث النبي صلى الله عليه وسلم ، عارفا بالفقه والسنة والحلال والحرام وفصول الأحكام ، ورعا تقيا جوادا كريما حازما بطلا شجاعا ، له عقل راجح ، وحلم واسع ، وإقدام في مهمات الأمور >> .

---

[1] القنا ارتفاع في أعلى الأنف واحديداب في وسطه وسبوغٌ في طرفه ، وقيل هو نتوءٌ وسط القصبة وإشرافه وضيق المنخرين . ابن منظور : المصدر السابق ، ص 3761 .

[2] أي تميلان إلى الغِلظ والقِصَر . المصدر السابق ، ص 2195 .

[3] تباعد بين الحاجبين . نفس المصدر ، ص 339 .

[4] الأدعج من الرجال هو الأسود ، والدعج شدة سواد العين مع سعتها . ابن منظور : المصدر السابق ، ص ص 1378 - 1379 .

تمت مبايعة إدريس الثاني بجامع وليلي سنة 186 هـ وبعد مقتل راشد تكفل به رجل اسمه أبو خالد بن يزيد وجدد له البيعة سنة 187 هـ وبايعته جميع قبائل زناتة وعظمت دولته واتسعت وخضعت له المناطق المجاورة وقصدها الناس فلما ضاقت عليهم وليلي بنى لهم مدينة فاس سنة 193 هـ وأقام بها جامع القرويين وبقي كذلك حتى توفي سنة 213 هـ .

لما توفي إدريس خلفه ابنه محمد بعهد من أبيه وقد أشرك معه إخوته في السلطة فأمّرهم على عمالاتها لكنهم دخلوا في خلافات بينهم ، وعن ذلك يقول ابن عذاري المراكشي :<< فولي منهم محمد بن إدريس ، ففرق البلاد على إخوته بأمر جدته كنزة ، فأعطى القاسم طنجة وما يليها ، وأعطى عمر صنهاجة الهبْط وغمارة ، وأعطى داود هوارة تامليت، وولي عيسى ويحيى وعبد الله بلاد أُخرى . وبقي الصغار من أخوته فثار عليه عيسى، ونكث طاعته، فكتب الأمير محمد بن إدريس إلى أخيه القاسم، يأمره بمحاربته، فأمتنع، وكتب أيضا إلى أخيه عمر، فأجابه وسارع إلى نصرته ، وكان تقدم بين عمر وعيسى تنازعٌ . وتوفي عمر ببلد صنهاجة، ونقل إلى فاس، وهو جد الحموديين . ثم توفي الأمير محمد بن إدريس - رحمه الله - >> .

وقد توفي محمد بن إدريس سنة 221 هـ فبايع الناس ابنه علي الملقب بحيدرة وتمتع الناس بالأمان في عهده حتى توفي سنة 234 هـ فامسك زمام الحكم أخوه يحي بن محمد الذي ازدهر العمران في عهده ثم توفي بتاريخ غير معروف فخلفه ابنه يحي بن يحي وكان ماجنا فأساء السيرة فثار عليه الناس ونفوه فبايع الناس علي بن عمر بالإمامة ودخلت الدولة في صراعات انتهت بزوال حكم الأدارسة (على الأرجح سنة 309 هـ).

رابعا : دولة الأغالبة :

كان إبراهيم بن الأغلب واليا على الزاب وتزايدت شهرته وسطوته مما جعل هارون الرشيد يمنحه استقلالا عن الخلافة العباسية والاكتفاء بتبعيتة الاسمية لها مقابل مبلغ من المال يبعثه إلى الخليفة وكان ذلك سنة 184 هـ ، وقد رضي العباسيون بقيام هذه الدولة بعد أن تكمن الخوارج والشيعة من إقامة

كيانات لهم بالمغرب ، فوجد العباسيون بني الأغلب السنيون أفضل موالٍ لهم في المغرب الإسلامي وعينهم المراقبة لما يجري من تطورات في هذه الجغرافية .
كان إبراهيم بن الأغلب يجمع بين العلم والتفقه في الدين والأدب وحسن الرأي والبأس والحزم وقد اتخذ من القيروان عاصمة لملكه ، وشرع في تكوين قوة عسكرية بحرية مكنت الأغالبة فيما بعد من غزو صقلية وافتتاحها سنة 212 هـ وغزو مالطة وسواحل ايطاليا ، كما اهتم إبراهيم بالعمران وبنى مدينة العباسية كتعبير عن ولائه للعباسيين واشتهر أمره في المغرب .
وقد تمكن من إخماد الثائرين عليه وفرض الأمن والدّعة في افريقية وقد توفي إبراهيم بن الأغلب سنة 196 هـ ، وقد ذكر الرقيق القيرواني بعض أوصافه وخصاله بقوله : << إن إبراهيم بن الأغلب فقيها ديّنا ، عالما شاعرا خطيبا ، ذا رأى وبأس وحزم وعلم بالحروب ومكائدها ، جريء الجنان طويل اللسان ، حسن السيرة . ولم يل إفريقية قبله أحد من الأمراء أعدل منه سيرة ولا أحسن سياسة ولا أرفق برعيّة ، ولا أضبط بأمر ، وكان كثير الطلب للعلم >> .

بعد وفاة إبراهيم بن الأغلب خلفه ابنه أبو العباس عبد الله بن إبراهيم الذي كان وقتئذ في طرابلس فقدم منها في صفر سنة سبع وتسعين ومائة للهجرة ، وقد كان ظالما لرعيته متعسفا في حكمه مما جعل بعض الصالحين ينصحونه بالتماس المعدلة والإحسان إلى الرعية لكنه استخفّ بهم واستهزئ فصلوا ركعتين ودعوا الله أن يخلّص المسلمين من ظلمه فلم يمض إلا خمسة أيام حتى وافاه الأجل بقرحة تحت أذنه أصابته سنة 201 هـ

وعن تجاوزات هذا الحاكم ونهايته يقول النويري : << وأراد عبد الله أن يحدث جوراً عظيماً على الرعية فأهلكه الله عز وجل قبل ذلك . وكان قد أمر صاحب خراجه أن لا يأخذ من الناس العشر، ولكن يجعل على كل زوج تحرث ثمانية دنانير أصاب أم لم يصب . فاشتد ذلك على الرعية وسألوه فلم يجب سؤالهم . وقدم حفص بن حُمَيد الجَزَري ، ومعه قوم صالحون من أهل الجزيرة وغيرها . فاستأذنوا على أبي العباس فأذن لهم . فدخلوا عليه - وكان من أجمل الناس - فكلمه حفص ابن حميد فكان فيما قال له : << أيها الأمير، اتق الله في

شبابك ، وارحم جمالك وأشفِق على بدنك من النار. ترى على كل زوج يُحرث به ثمانية دنانير. فأزل ذلك عن رعيتك ، وخذ فيهم بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم . فإن الدنيا زائلة عنك كما زالت عن غيرك >> . فلم يجبه إلى شيء مما أراد . وتمادى على سوء فعله وأظهر الاستخفاف بهم . فخرج حفص بن حميد ومن معه فتوجهوا نحو القيروان . فلما صاروا بوادي القصارين قال لهم حفص : << قد يئسنا من المخلوقين فلا نيأس من الخالق >>. فسألوا الله وتضرعوا إليه، فدعوا الله على أبي العباس أن يمنعه مما أراده بالمسلمين ويكف جوره عنهم . ثم دخلوا مدينة القيروان ، فخرجت لأبي العباس قرحة تحت أذنه فقتلته في اليوم السابع من دعائهم واسوَدّ لونه . وكانت وفاته ليلة الجمعة لست خلون من ذي الحجة سنة إحدى ومائتين >> .

تولى الحكم زيادة الله بن إبراهيم سنة 201 هـ وكان أفضل حكام بني الأغلب، فقد اخمد الثورات مثل ثورة زياد بن سهل المعروف بابن الصقلبية سنة 207 هـ وثورة منصور بن نصير الطنبذي سنة 209 هـ ، وقد غزا زيادة الله صقلية سنة 212 هـ للقضاء على غارات الروم والحصول على مزيد من الغنائم وإذكاء جذوة الجهاد لمواصلة نشر الإسلام ناهيك عن نية زيادة الله التخلص من مثيري الشغب بإشراكهم في الجهاد وكذا الظهور أمام رعيته بمظهر الحاكم المجاهد المرابط على الثغر.

توفي زيادة الله سنة 223 هـ وخلفه أخوه أبو عقال الأغلب فأحسن إلى الناس والجند وأزال المظالم وزاد في أرزاق عماله وغزا أجزاء أخرى من صقلية وغنم منها ، وكانت أيامه هدوء باستثناء انتفاضة الخوارج في إقليم قسطيلية التي قضى عليها . وتوفي سنة 226هـ ، وعن أيام حكمه يقول النويري صاحب نهاية الأرب في فنون الأدب : << ولما توفي زيادة الله وُلي أخوه أبو عقال ، وهو الملقب بخَزَر ... فلما مات زيادة الله وصار الأمر إليه، لم يكن في أيامه حروب فأمن الجند وأحسن إليهم . وغيّر أحداثاً كثيرة كانت للعمال ، وأجرى على العمال الأرزاق الواسعة والعطايا الجزيلة . وقبض أيديهم عن أموال الناس ، وكفّهم عن أشياء كانوا يتطاولون إليها . وقطع النبيذ من القيروان . وتوفي في يوم الخميس لسبع بقين من

شهر ربيع الآخر سنة ست وعشرين ومائتين. فكانت ولايته سنتين وتسعة أشهر وتسعة أيام . وكان شبيهاً بجده الأغلب في الخَلْق والخُلُق >> .

بعد وفاة أبي عقال الأغلب خلفه أبو العباس محمد بن الأغلب بن إبراهيم فساد الهدوء وتوسعت دولته على حسب الرستميين في المغرب الأوسط وفي سنة 231 هـ ثار عليه أخوه أبو جعفر فنفاه إلى مصر كما اخمد ثورة عمرو بن سليم التجيبي المعروف بالقوبع سنة 234 – 235 هـ ونفي هذا الأمير سنة 242 هـ فخلفه ابنه أبو إبراهيم احمد بن محمد الذي كان رحيما برعيته رفيقا بها فكان يوزع الدراهم المحمولة فوق الدواب على الفقراء ومن أشهر أعماله بناء المواجل والمساجد والقناطر فبني سنة 248 هـ ماجل كبير [5] بتونس ، وهو من زاد في مسجد القيروان وبنى سور سوسة وتوفي سنة 249 هـ فخلفه أخوه أبو محمد زيادة الله الثاني وتوفي بعام بعد ذلك فخلفه أبو الغرانيق محمد(ابن أخيه) سنة 250 هـ ، فكان هو الآخر مولعا بالبناء والتشييد فبنى الحصون ومحارس على ساحل البحر وفي عهده بني مسجد بالقيروان وكان غاية في الجمال والروعة وتوفي سنة 261 هـ .

بعد وفاة أبي الغرانيق خلفه إبراهيم بن احمد الذي أسس مدينة رقادة وبنى فيها جامع وقصرا وبنى سورا بسوسة وكان حسن السيرة في رعيته في البداية ثم أصبح جائرا ظالما سفّاكا للدماء حتى أُصيب آخر عمره بجنون القتل وفي عهده ظهرت الدعوة الفاطمية الشيعية ببلاد المغرب مما جعلته يتوب عن أفعاله لاجتذاب الناس إليه وصرفهم عن إتباع الفاطميين فاعتق الناس ورد المظالم واخرج من في السجون وغزا صقلية مرة أخرى ثم جنوب ايطاليا ففتح مسينا ثم طرمين (taormina) سنة 289 هـ كما توغل إلى الداخل وغزا قلورية (calabria) وكسنثة (cozenza) وفرض الجزية على أهلها وفي هذه الأثناء وافته المنية سنة 289 هـ .

خلفه ابنه أبو العباس عبد الله بن إبراهيم ذو السيرة الحسنة المتقشف المتواضع ناصر المظلومين مجالس العلماء ، وقد امتدحه النويري بقوله : << وكانت ولايته بعد أبيه في يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة سنة تسع

[5] صهريج على شكر سد مائي .

وثمانين ومائتين (289 هـ) . فجلس للناس للمظالم . ولبس الصوف ، وأظهر العدل والإحسان والإنصاف . ولم يسكن قصر أبيه . ولكنه اشترى داراً مبنية بالطوب فسكنها إلى أن اشترى داره التي عرف بها >>.

غير أن الوضع اضطرب في عهد هذا الحاكم فمات مقتولا سنة 290 هـ على يد اثنين من فِتية الصقالبة بأمر من ابنة زيادة الله الذي خلفه فسجن أعمامه ثم قتلهم وقتل الفتيين اللذين قتلا أباه كما قتل أخاه أبا عبد الله ، غير أن خطر الداعية أبي عبد الله الشيعي كان قد استفحل فتقاتل معه في كينونة وانتصر الشيعة وهكذا بدأت المناطق تسقط في يد الشيعة الواحدة تلوى الأخرى مثل طُبنة وباغاية وقسطيلية وتبسة وغيرها . ولما علم زيادة الله بذلك حمل الذهب والجواهر وعزم على الهروب لمصر وترك قصوره التي هجم الناس عليها وإنتهبوا ما بقي فيها ثم دخل الشيعة رقادة .

يحيلنا ابن عذاري المراكشي على مشهد تهاوي سلطان الأغالبة أمام أبي عبد الله الشيعي وأجناده ، وفرار آخر حكام الأغالبة بقوله : << زحف أبو عبد الله الشيعي إلى الأربس [6] ونازلها، وبها إبراهيم بن أبي الأغلب في عساكر أفريقية وجمهور أجنادها ، فقاتلها حتى أخذها عنوة ودخلها بالسيف لست بقين من جمادى الأخيرة . فهرب إبراهيم بن أبي الأغلب واليها ، ونجا في جماعة من القواد والجند . ولجأ أهل الأربس ومن كان اجتمع فيها من فُلّال العسكر إلى جامعها . وركب بعض الناس بعضا وقتلهم الشيعي - لعنه الله- أجمعين ، حتى كانت الدماء تسيل من أبواب المسجد كما يسيل الماء من وابل الغيث . وقيل إنه قتل داخل المسجد ثلاثين ألف رجل . وكان قتلهم من بعد الصلاة العصر إلى أخر الليل . فلما أصبح، وقد فرغ من القتل والنهب والسبي ، نادى بالرحيل، وانصرف إلى مدينة باغاية ، إذ خشي أن يحاشد عليه أهل أفريقية .

واتصل الخبر بزيادة الله في اليوم الثاني، وهو يوم الأحد لخميس بقين من جمادى الأخيرة ، فسُقِط ما بيده ، وعلم إنه خارج عن ملكه . وجعل ابن الصائغ

---

[6] الاربس بالضم ثم السكون ، مدينة بافريقية بينها وبين القيروان ثلاثة أيام من جهة المغرب . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، 1977 ، ج 1 ، ص 136 .

يطفئ الخبر ويُكذّبه له، ويظهر أن الفتح كان لهم على الشيعي. وبرّح على أبواب مدينة رقادة : << من أراد اللحاق وجزيل العطاء ، للفارس عشرون دينارا وللراجل عشرة دنانير ، فليلحق بقصره الأمير>> ، فلما سمع الناس ذلك بدر إليهم سوء الظن، وعلموا أن الدائرة كانت على أصحاب زيادة الله ، وماجوا فيما بينهم . وجعلت الخاصة وأهل الخدمة يفرون من رقادة . فلما رأى ذلك زيادة الله، أخذ في شدّ الأحمال بما خف من الجوهر والمال ، وحرك خاصته للخروج معه . فلما كان وقت صلاة العَتَمَة من ليلة الاثنين لأربع بقين من جمادى الأخيرة ، ركب فرسه، وتقلّد سيفه ، وقدم الأحمال تمرّ بين يديه ، هاربا أعلى عيون أهله وحرمه وولده .

فأخذت جارية من جواريه عودا ووضعته على صدرها ، وغنّته لتحرّكه على حملها معه، فقالت :

لم أنس يوم الوداع موقفها ... وجفنها في دموعها غَرِقُ

وقولها والـــــركاب ســـائرة ... تتركنا سيدي وتنطلـــقُ

أستودع الله ظبية جزعـــت ... للبين والبينُ فيه لي حُرَقُ

فدمعت عينا زيادة الله عند سماعها ، وشغله سوء الموقف وضيق الحال عن حملها معه . وخرج عن مدينة رقادة متوجها إلى مصر في ثلث الليل الأول >> .

وبذلك أفل نجم الأغالبة وزال ملكهم .

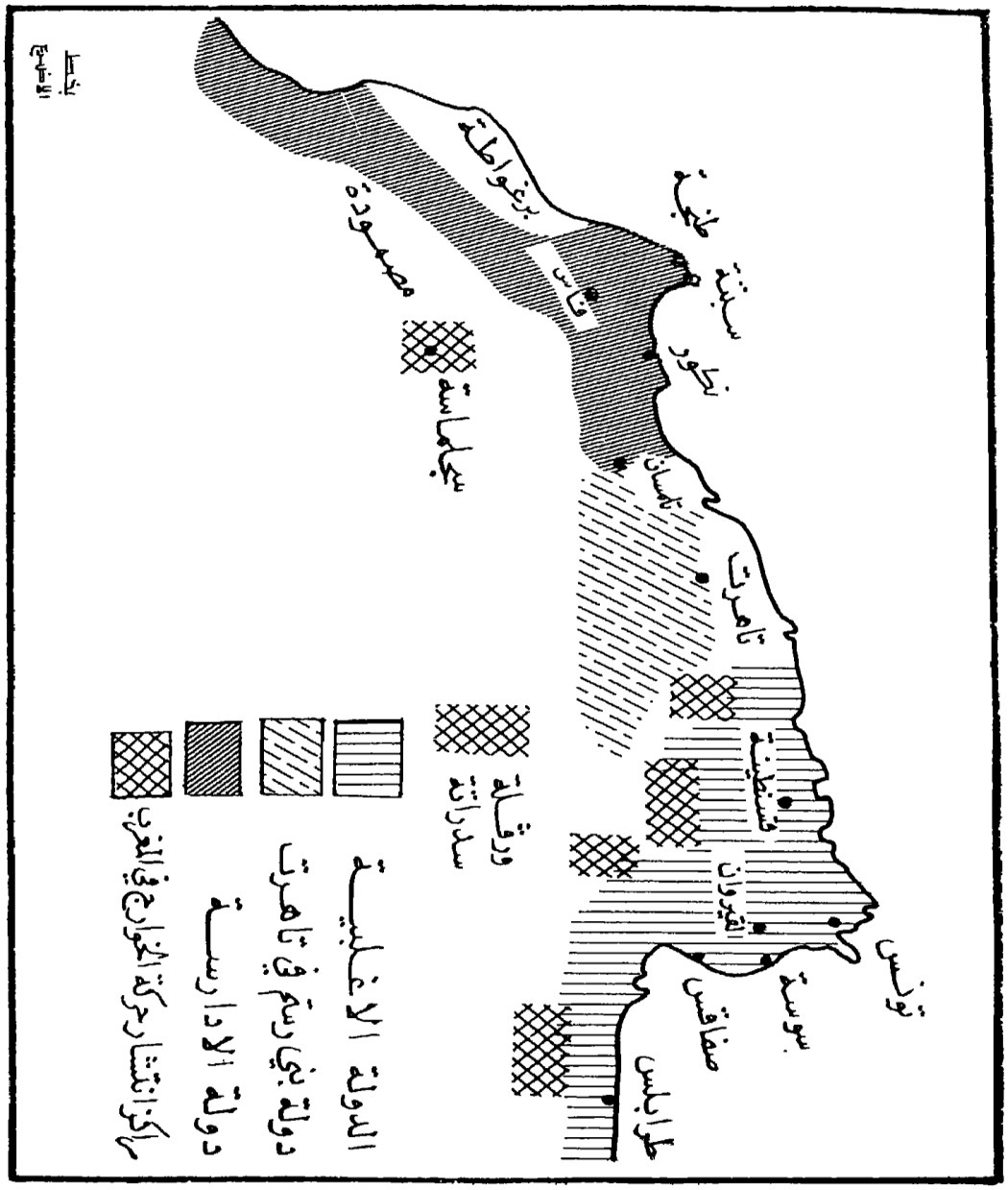

خريطة رقم 2 : دويلات المغرب المستقلة (العهد الأول)